التوعية وأخلاق الكاتب

بقلم محمد الجزائري

في وجدان المجتمع الاشتراكي ، عميق اثر ، تحفـــره الظروف الموضوعية والذاتية لهذا المجتمع ، عبر التراكم الكمي فـــي التـــراث الاخلاقي الذي ورثوه .. وينعكس في تداخل زمني محدد ، على الفرد ، .. كما ينعكس على المجموع البشري المتفاوت المصالح ، والانحدارات الطبقية ..

من هنا ، نجد ان الجذر الفكري للمجتمع ، يظل (حتى في المجتمع الاشتراكي) يجر الانسان للرجعة في هذا المجال او ذاك .. ان لم يكن الفرد من الثبات الايديولوجي والتماسك بالدرجة التي تمكنه من التخلص من شوائب جذر المجتمع المرتبط به ..

ونحن ، في المجتمع العراقي ، نرى ، ان اثـــار العلاقات شبـــه الاقطاعية ، شبه الاستعمارية تظل عالقة في ذهنية البعض حتى مـــع ابتعادهم المصلحي عن علاقات الماضي ، فالافكار القديمة تظل تتمطى ، في عقل المجتمع الجديد ، فترة من الزمن حتى يتم لعقل المجتمع الجديد ان يكون متسلحا باليقظة الفكرية ، الثورية .. بحيث يستطيع التخلص من كل شوائب الماضي ..

والتوعية حين تنصب في اي مجال من المجالات الحياتية يلازمهـا بالتأكيد ضرورة توفير المناخ الفكري الملائم ، او بالاحرى المناخ الاجتماعي الملائم ، لاستيعاب مادة التوعية واسبابها لكي تكون حصيلة التجربة ، في استخلاصها ، من الغنى والدفع بحيث تقتلع كل بقايـــا العقلية القديمة ، وتغذي الحياة الجديدة بالفكر الجديد المتطور ..

ومن الاوليات ان يلتزم الكاتب الاشتراكي باخلاقية ثورية تتناسب مع صعوده الفكري وبنيته الاشتراكية .. لان التصورات الايديولوجية التي يكونها الناس عن انفسهم ، والتي تتناول « علاقاتهم بالطبيعة ، او علاقاتهم بعضهم ببعض او طبيعتهم الخاصة » هي : « تعبير (حقيقي او وهمي) عن علاقاتهم الحقيقية ، وتوكيد لانتاجهم وتعاملهم ولاتجاهاتهم الاجتماعية او السياسية .. » .

ومن هنا فان الايديولوجية البورجوازية تنطلق من واقع ، لكنهـا تصوره بالشكل الذي يتلاءم مع مصالحها الطبقية ، اذ انها تصـــوره انطلاقا من اخلاقية تعتمد الاستغلال اسلوبا فـــي العلاقات الانتاجيـــة ، تعتمد السعي لكسب اوفر كمية من الارباح .. لذا فهي تشوه هـــذه الحقيقة الموضوعية او تلك تبعا لهذه المصالح او تلك :

« ان انتاج الافكار والتصورات والشعور ، يتفتق مباشرة ، وفـــي الدرجة الاولى عن النشاط المادي والتعامل المادي للناس . وهو لغـــة الحياة الواقعية ان عملية التصور الذاتي والتفكير والالفة الروحية بين الناس هي ايضا انبثاق مباشر لاتجاههم المادي » .

والشعور لا يمكن ان يكون شيئا اخر غير الشيء الذي يشعـــر وجود الناس ، هو عمليتهم الحيوية الحقيقية ، واما ما تتفتق عنـــه ادمغتهم من بدائع يكتنفها الغموض فهي بالضرورة ذيول لعمليتهم الحيوية المادية التي لا يمكن ملاحظتها تجريديا .

« ان ماركس ـ مثلا ـ لم يقف عند مادية القرن الثامن عشر (بل) لقد دفع بالفلسفة الى الامام فاثراها بمكتسبات الفلسفة التقليديـــة الالمانية ، ولا سيما مذهب هيغل ، الذي افضى بدوره الى مادية فيورباخ واهم هذه المكتسبات هو الديالكتيك ، اي نظرية التطور فـــي اتـــم مظاهرها واعمقها وارحبها صدرا ، نظرية نسبية المعارف الانسانية ، التي تصور لنا المادة في نمو دائم .. واذ تعمق ماركس المادية الفلسفية وتوسع فيها ، سار بها حتى غايتها المنطقية وامتد بها مـــن معـــرفة الطبيعة الى معرفة المجتمع الانساني (.. وهذا يوصلنا الى القول بان الفكر المادي الديالكتيكي اوصلنا الى معرفة اخلاقية المجتمع الانساني » .

ومن هنا فان التوعية حين يجند الكاتب لها قلمه ، يجب ان تنطلق من تحديد معطيات المجتمع الانساني وحاجياته المادية والروحية ومـــن فهم عميق لمحصلات القوى التي تشد المجتمع فيسير في هذا الطريـــق او ذاك ، ثم تترسم ، بالتالي ، خط السير الصحيح للفرد في زحمة العمل والحياة ، لاثراء المجتمع وتعميق انسانية الانسان .. لكيما ينصب ـ بالتالي ـ الكفاح ضد الشواخص الاستغلالية القائمة من الماضي ، ضد الشواخص الاستغلالية للاستعمار والاستعمار الجديد وذيـــوله وذهنيته .

ان التوعية (بل ان مجمل القيم الفكرية ، في المجتمع) لا يمكن ان تتم بالنظرية وحدها بل يجب ان يصاحب ذلك تغير جذري فـــي القاعدة الاقتصادية للمجتمع .. لكيما يترتب على ذلك خلق وعي طبقي متسلح بالنظرية الثورية ، يدرك اين يكمن معنى الدفع الانساني للمجتمع في طريق الاشتراكية .. لاننا ندرك ان الايديولوجيات لا تنبعث عـــن المطلق ، وليس لها اساس ابدي سرمدي .. بل لها جذور تمتد في واقع الناس المادي وحياتهم الاجتماعية ، ومن هنا ، تكون اخلاقية الكاتب وجها معبرا عن ايديولوجيته ، عن المثل التي يتبناها ، والقيم التي يحمل .. ويسعى من اجل تحقيقها ..

ولذا يمكن القول بصدق ان العمل يفقد حاسة الابصار او الرؤية، ان لم يكن الفاعل ، المنفذ ، واعيا طريق التنفيذ ، طريق تحويل الافكار الى واقع تطبيقي بناء .. واقع جعل النظرية تتسامق مـــع التطبيق فتغنيه وتغتني به ..

« فالعمل اعمى بدون نظرية مرشدة » والتوعية ، مع انها تستمد بنيتها الفكرية من اساسات مادية ، لكن الجوانب الفكرية للتوعية يجب ان تعتمد على اصول فكرية متماسكة ، اي على نظرية مرشدة ، لا علـــى منهاج مرحلي مؤقت ، معرض للتخطي من قبل المرحلة ذاتها ـ احيانـــا ـ في زحمة المسار التاريخي الحتمي للاحداث .

ان الكاتب الذي يتمثل سمات عصـــره ، يتحمـــل ـ بالتأكيد ـ مسؤولية اخلاقية المسار الانساني الحتمي .. وهنا لا يجب ان يكـــون الكاتب داعية فقط ، بل داعية وثوريا في ذات الوقت .. وان يحمل في اعماقه ، شحنات « ارادة التغيير » بكامل ما في عروق العبارة من دم يبعث في شريان الحياة بالجديد ، المغذي .

ان الاسترشاد بالنظرية لا يعني تطبيق نصوص جامدة ، دون النظر، بعمق للمسببات المادية للحدث ، ثم استخلاص النتائج من ذلك ، وتحديد موقف ثوري واع كنتيجة منطقية للسلوك الثوري ..

فان اي نظرة احادية الجانب للحياة ، او لقطاع حياتي او شعبي ، او لشريحة حياتية معينة ، سيجعلنا نقع بخطأ بالغ الاهمية في التقدير، ومن ثم بالنتائج .. وبالتأكيد ستكون تقديراتنا ناقصة غير متكاملة في مجرى العمل والتطبيق . فيجب رسم التكتيكات ، انطلاقا مما تتطلبـــه الظروف (من كل جوانبها لا من جانـــب دون الالتفات للجانـــب او للجوانب الاخرى) لكيما يتوفر لنا خلق جو من التوعية ، صحيح ..

ان التوعية ضرورة ، ولكن لا يعني هذا ان ندرج مقولات نصية ما.. دون النظر الى الممكن من الامور ، في التطبيق ، وعملية البناء ... فالسياسة هي فن الممكنات من الامور ويجب اولا تشخيص المشكلات المستفحلة في المجتمع لكيما ننطلق (في عمل التوعية والتحريك) لتعبئة الرأي العام ، وخلق وعي متمكن من ادراك المهام اليومية لانساننا ، ولرسم خطوط اخلاقية المجتمع انطلاقا من تكامل الاسس هذه ، بذهن ـ الكاتب ـ على الاقل ، بعد انعكاسها عن الواقع الموضوعي .. ثم لتوضيح الضروري والممكن ، في عملية التطبيق يحتاج الكاتب لنظرة تحليلية ديناميكية للحياة ، وقابلية اقناع كبيرة ، لكي تتفتح امام الجمهور امكانية تخطي موقف المتفرج ـ والاسهام عمليا ، وبتفاعل تام ، في عملية المعركة والبناء ..

اننا نؤمن بان النظرية تزداد غنى كلما اتصلت والتصقت بالواقع.. انها تنمو وتتسع بتقدم وتطور المجتمع والعلوم والمعارف الانسانية ..

وان اخلاقيتنا تتجسد من خلال الصراع بين الافكار المادية والمثالية .. فان الصراع هو الذي يجسد عمق التوعية ، وطبيعة الاخلاقيات المجتمعية ، بما فيها من نقيض ..

ان الصراع ، هذا .. ليس صراعا نظريا ، وحسب .. بل هو لصيق الصلة تماما بنضال الطبقات ..

ومن هنا ، فالتوعية ، واخلاقية الكاتب ، يجب ان تكونا لصيقتي الصلة بالظروف المادية للمجتمع ، وغير مستقلتين عنها ..

فالتوعية هي احد اسلحتنا في الصراع القائم بين الجماهير وبين الاستعمار والرجعية والعدو المشاكس : الصهيونية .. وذيولهم المتسترين ببراقع شتى ..

اما الاخلاق فليس من الممكن تجريد الانسان من صفاته الانسانية التي ورثها من مجموع اخلاقيات الناس في المجتمع في مراحله التاريخية .. وتنعكس عليها اخلاقية عصرنا وسماته المميزة .. فالاخلاق في المجتمع تنطوي هي الاخرى على تناقضات باطنية تتصارع ، فنجد فيها مظاهر من المادية الى جانب مظاهر اخرى من المثالية .. ولكن لا يمكن تجريد هذه الاخلاقية (كجزء من البناء الفوقي للمجتمع) عن القاعدة الاقتصادية والتي هي (البناء التحتي للمجتمع) اذ ان عملية البناء تواجه من عوامل العرقلة والصعوبات الشيء الكثير (كالتباين في الظروف المادية والفكرية بين بلد واخر .. واجهزة التطبيق والادارة .. الخ. ان عملية البناء والتغيير الثوريين يجب الا تقتصر على تغيير ملكية وسائل الانتاج بل تتضمن تغييرا في اساليب وتركيب الحكم بما يتناسب مع طبيعة ما تتطلبه ضرورة عملية التغيير من كيان لحفظ المكاسب الثورية وتطويرها الى جانب الثورة الفكرية في المفاهيم والثورة الزراعية في الريف .. والثورة الصناعية في المدينة) .. فالاجهزة التي تطبق الاشتراكية عبر ـ الاصلاح الزراعي ـ مثلا ـ تسير بوتائر ضعيفة ، يجب ان يكون ثمة اجهزة ثورية ذات كفاءة ودراية ، ودربة ، بل تمتلك اخلاقية اشتراكية ، وحافزا معنويا قويا في العمل ..

صحيح ان ملاكاتنا ، لما تزل تحتاج الى نمو وتوسع ، في الكادر المتخصص ، والحامل ذهنية التطبيق الاشتراكي الواعي ، ولكن لا يمكن، ولا يوجد ، قط ، ميدان للفكر فوق الحياة الاجتماعية ، ومستقل عنها استقلالا تاما .. اذ يجب ان يكون المخطط ، الاجتماعي ، يحمل ، في اعماقه اخلاصه لمفاهيم التقدم والتطور والاشتراكية ..

ان النضال الاجتماعي والفلسفي مترابط تماما ، لذا فيجب ان لا نعزل الاشياء عن شروط وجودها فنحيلها الى تجريدات خالصة ، في عملية التوعية لانه لا يمكن النظر الى الطبيعة البشرية على انها حشد عرضي للاشياء والظواهر ، بل انما كل موحد ، منسجم ، ترتبط فيه الاشياء والظواهر ارتباطا عضويا ، ويتراصف بعضها على بعض، ويتوقف بعضها على بعض ، ويكون بعضها شرطا للبعض الاخر ..

ان الطبيعة في حالة حركة وتغير دائمين .. انها حالة تكامل وتجدد لا ينقطعان ولا يمكن ان تكون اخلاقية الفرد في المجتمع ، بدون ذلك ، اي الطبيعة البشرية ، في تغير وتجدد دائمين ، تبعا للشروط الموضوعية والمادية للمجتمع.. ومن هنا تكون توعية الفرد منطلقا للتعبير عن اخلاقية مجتمع الاشتراكية ، فاخلاقية الفرد (والكاتب بشكل خاص) يجب ان تسير بخط متوافق تبعا لذلك ، حيث يولد الشيء وينمو ويضمحل .. وهكذا ..

ان التوعية ترتبط ديالكتيكيا باخلاقية الكاتب ، وبالمجتمع .. فهي تعالج الظواهر الطبيعية ، ليس فقط من وجهة علاقتها وشروط فعلها المتبادلة ، بل ايضا من وجهة ظهورها وزوالها ..

ان اخلاقية الكاتب في المجتمع ليست مجرد عملية ازدياد نوعي تحتفظ فيه التغيرات الكمية بطابعها الكمي .. بل انها نمو يمضي من تغيرات كمية كافية الى تغيرات ظاهرة اساسية ، وبالتالي الى تغيرات كيفية تنعكس في عملية الانتاج الفكري في التوعية ، والاثارة والتحريك ، وفي الدفع الثوري ، عموما ، وتعميق المسار التاريخي للمجتمع ..

اي ان اخلاقية الكاتب ، ليست التعبير عن ذاته ، منعزلة عما يحيطها من تأثيرات مجتمعية ووطنية وقومية وانسانية ، بل انها تنعكس في المعركة وعنها .. لانها انعكاس وفق هذه التاثرات كلها .. وتخوض نضالا في المعركة من الشيء الكامن فيها ، باعتباره مجموعا معقدا من الافكار والتأثيرات والسلوك .. الخ .. حتى تمر هذه الاخلاقية في عملية تحليلية ، عميقة ، تنطلق بعدها الافكار (اثناء عملية التوعية) لا لتعبر عن نظرية ومقولات ، بل لتعبر عن تجربة انسانية ، وعن قيم ناضجة تشكل موضوع الحدث المكتوب وتسهم في الدفع الى الامام نحو الاستقطاب حول سمات العصر والوجود الانساني .

لذا فان اخلاقية الكاتب التي تنعكس من خلال كتاباته (عبر التوعية ، والتغيير) يجب ان تعبر عن ذروة النمو الاخلاقي كما يجب ان يكون عليه المجتمع الاشتراكي الانساني الذي يسود فيه الاخاء والعدالة الاجتماعية .. مجتمع الوفرة في الحاجيات المادية والروحية .

لذا يكون النمو الفكري للحدث (الذي يصوره الكاتب في منطلقات اخلاقية المجتمع والعصر) يجب ان يجري من البسيط الى المركب ، من

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

الادنى للاعلى .. وبالضرورة يتطلب منا هذا جهدا في عمل الاثارة والدعاية والتحريك .. في عمل التوعية والتعبئة الفكرية بمجملها ، لكي تنصب مضامين الكاتب في الموضوع ، انطلاقا من حاجة المجتمع لذلك ، حاجة مجموع القراء الذين يستهدفون من الكاتب ان يكون معلما لا مجهلا ، وهو بذات الوقت يتعلم من الجماهير دروسه الحقيقية في عملية تشخيص حاجياتها ومشاكلها المستفحلة ، واعطاء الرأي الصريح الواضح فيها .. والعمل من اجل حلها ، بالتضامن مع القوى الاخرى التي تتفق معه ببرنامج واضح للعمل الموحد ..

ان الحوار الذي يجري بين الاشتراكيين ، يحقق بالتأكيد نتائج ايجابية ، وان وحدة الاشتراكيين (وحدة القوى العاملة) لتدعو ، ان يتمثل الكاتب اواصر الشد التي تجمع كل هذه الاخلاقات وتوحدها في مصب فكري واحد ، وفي هدفية موحدة .. لكيما يصور ـ في عملية النقد الاخوي المتبادل ، حقيقة المشكلة والتعبير عن انجح السبل لحلها .. لا ان يدخل في تعميمات مضببة غير واضحة ، يتوه فيها المسار الفكري ويتكسر الهدف ، ويفقد الموضوع طبيعته الادائية في التوعية ، والمعركة والبناء ..

ان صراع الاضداد ، الصراع بين الحديث والقديم ، بين ما يثبت حياتيا ، وبين ما ينهزم (في الثقافة ، والاخلاق ، والفلسفة ، والسياسة .. الخ..) هو المضمون الباطن لعملية النمو .. ومن هنا فان الحياة هي الميدان الذي تتجلى فيه النتاجات العملية الظاهرة المنعكسة من المضمون الباطن لعملية النمو في شخصية الكاتب (اخلاقيته ودعوته) .

ان العصر الذي تقوم به المذاهب الفلسفية الميتافيزيقية ، والكتابات الفكرية ، على التفكير التأملي الغيبي ، الذي يخلق من لا شيء عوالم مجردة ، ويورد مسائل لا صحة لها حول هذه العوالم ويبقى يدور فيها في تحديدات لاهوتية .. الخ.. ان ذلك العصر ، قد انتهى ، ولقد تخطت الحياة كل الذين يريدون اعادة الماضي وايقاف عجلة التاريخ ..

اننا يجب ان نشخص المسيرة العربية التقدمية الظافرة ، وندرس حتى جذور الفكر الاشتراكي ، لكي نعمق المرحلة ، ونغنيها ونزيح تلك الشوائب الفكرية التي ما زالت عالقة هنا وهناك ..

ان الزمن الذي يريد به « الكاتب » ان يقول كلمته الخاصة ، ويحاول ان يثبت انه موجود وحيد في كل شيء ، وان الاخرين يجب ان يعترفوا له بهذا التوحد ، وهذه الخصوصية ، هذا الكاتب يموت ما لم نندمج حياته ووعيه ، وتنعكس اخلاقيته ، من حياة المجتمع ووافع كونه موجوداً ضمن هذا المجموع ..

لقد طلق حتى ادباء الواقعية الانتقادية الفردية منذ السنوات العشر الاخيرة في قرننا الحالي فرديتهم . ان المهمة الاساسية التي تواجه الكاتب في مجتمعنا العربي الصاعد هي مهمة اخضاع خصوصيته للعموميات ، هي مهمة الاندماج بالمسار الاشتراكي (على ان يحتفظ بشخصيته المتماسكة لكيما يعبر من خلال ذلك عن فكر متماسك وباخلاقية متماسكة) ثم هي مهمة ان يعي الوجود المتسامق لعملية التحول والبناء في المجتمع العربي الجديد ، ويكون دوره موجها فاعلا ديناميكيا ..

ان العالم الرأسمالي ، العالم الذي تتآكله تناقضاته هو وحده « الذي تراكمت فيه الذوات دون تمييز ، كبيدر الغلال ! » اننا ضد كون معيار الحقيقة ، هو القيمة العملية وحدها ، كذلك لا نطلب في مجتمع البناء الاشتراكي من هذا الكاتب او ذاك ان يطرح من حسابه واجبه الفعلي في عملية التوعية والبناء .. ان اخلاقية التوعية هي الانعكاس الضروري لمجرى عملية حياة الكاتب الانساني مجرى ادراك دور الانسان في عملية صنع التاريخ .. ان الكاتب الانسان امام مهمة جليلة هي ان يدرك مكانه في المجتمع وفي المسيرة التقدمية الظافرة ، لكيما يكون الداعية والثوري بحق .. ولكيما يستوعب قوانين المجتمع والتاريخ والحياة .. فهو امام مهمة ان يخدم الاشتراكية ، فكراً ، وتطبيقا .. لان الاشتراكية مسار تاريخي حتمي .

بغداد **محمد الجزائري**

القميز العتيق

اوف ...
ذكرني قمبازك « العتيق »
والسحنة المطفيه
بليلة كنا معا فيها
نجني عناقيد دواليها
ونطلق الاحلام تحت الشجر
لعلنا نجني وداد القمر

***

يا راشد الماشي على دربه
ضيعتني
يا راشدي في الطريق
خليتني امشي على دربي
يدي على قلبي
وفي يدي الاخرى سراج ضئيل
أخشى عليه من نسيم عليل

***

يا الراشد الماشي على دربه
يأكل من قلبه
يشرب من ينبوعه الدافق
اذكر رفيقا ضاع في العاصفه
ينبوعه جف ولم يبق ريق
في حلقه العابق
بالموت والرمل وشوك الطريق

***

قمبازك البالي
انكر « بنطالي »
ووجهك الشاحب أوحى لي
أني خلال السفر
أضعت وجهي في شعاب الطريق

***

معذرة يا رفيق
فليس عندي غير وجهي الذي
حملته في يوم ترحالي ...
حدق به .. فقد يكون الغياب
انساك ما ألفته في الشباب

ناجي علوش